حب فى الشتاء

قصة للكاتب الروسى أنطون تشيكوف

للاستاذ محمد فتحى عبد الوهاب

كان ذلك اليوم من أيام الشتاء المشرقة ... والصقيع ينقصف فى حدة ، وقد كسا الجليد اللجينى خصلات شعر نادنكا المتدلة على جبينها وحافة شفتها العليا

وكانت ممسكة بذراعى ونحن واقفان على تل مرتفع ، وقد امتد تحتنا المنحدر الأملس ، تنعكس عليه أشعة الشمس كما لو أنه مرآة ، وبجوارنا زاحفة مغطاة بقماش أحمر براق

وقلت لها راجيا « فلننزلق يا نادينزدا بتروفنا ! مرة واحدة فحسب ! أؤكد لك أنك ستكونين بخير ولن تصابى بسوء »

بيد أن نادنكا ظلت مرتاعة ، فقد كان يبدو لها المنحدر من موقع قدميها حتى سفح التل الثلجى وكأنه هوة مهولة عميقة الغور . وخانتها شجاعتها ، وبهرت أنفاسها كلما حدقت إلى أسفل ، فى الوقت الذى كنت أقترح عليها مجرد ركوبها الزاحفة . إذن ماذا يكون حالها إذا ما جازفت بالاندفاع إلى الهاوية؟ فلعلها تهلك أو لربما تفقد وعيها

وقلت « أرجوك ! لا تخافى ! إنها شجاعة واهنة منك ! إنه خور وضعف ! »

وأخيراً أذعنت دونكا ... ولاحظت من ملامحها أنها قد رضخت وهى فى حالة من الخوف المميت . وأجلستها على الزاحفة شاحبة مرتجفة ، وأحطتها بذراعى . ثم دفعت بى وبها إلى أسفل الهاوية

واندفعت الزاحفة وكأنها القذيفة . ولطم الهواء وجهينا مزمجرا ، وهدر فى آذاننا يتمزق حولنا ، ويقرصنا غاضبا فى قسوة ، محاولا أن ينتزع رأسينا من أكتافنا . وتعذر علينا التنفس من ضغط الريح

كان يبدو كما لو أن الشيطان ذاته قد أمسكنا بمخالبه ، يسحبنا إلى الجحيم فى هدير . واستحال كل ما يحيط بنا خطا واحداً متماسكا ممتدا يسابقنا سباقا هائلا - وخيل إلينا فى لحظة كما لو أننا فى طريق الردى

وهتفت قائلا فى همس « إنى أحبك يا نادينا ! »

ثم أخذت الزاحفة تقل سرعتها رويداً رويدا ، ولم نعد نخشى هدير الريح . وسهل علينا التنفس . ثم إذا بنا فى سفح الهضبة

كانت نادنكا فى حالة سيئة ، شاحبة الوجه ، تتنفس فى صعوبة ... وساعدتها على النهوض

وأخيراً قالت وهى ترنو إلى بعينين واسعتين مفعمتين رعبا « ما من أحد فى العالم يدفعنى بعد ذلك إلى إعادة الكرة . لقد كدت أهلك ! »

وإن هى إلا لحظة حتى استعادت رباطة جأشها ، ثم تطلعت فى عينى متسائلة ، وقد لاح على محياها دلائل العجب : هل أنا تفوهت حقا بهذه الكلمات الثلاث ؟ أم كان ذلك وليد مخيلتها وسط زئير العاصفة ؟ وكنت واقفاً بجوارها أدخن وأنا غارق فى تأمل تفازى

وأخذت بيدى ، ثم قضينا وقتاً طويلا نتجاذب أطراف الحديث على مقربة من التل الثلجى . وكان من الجلى أن الفتاة لا يدع لها فترة للراحة ... هل تفوهت بتلك الكلمات أو لم أتفوه ؟ ... نعم أولا ؟ ... نعم أولا ؟ إنها مسألة كبرياء ، شرف ، حياة - إنها شىء ذو أهمية كبرى ، أهم مسألة فى العالم

وظلت نادنكا تتأمل وجهى فى حزن واضح ، وتخترق نظراتها النفاذة ملامحى فى صبر نافذ ، وتجيب على أسئلتى كيفما تمن لها الإجابة . أواه ، يالها من مشاعر تتلاعب على صفحة ذلك الوجه الجميل ! شاهدت أنها تتأمل مع نفسها ، وتود أن تمضى بشىء ، وتريد أن تسأل سؤالا ، دون أن تجد ما يسعفها من كلمات . تستشعر الارتباك والخوف والاضطراب ...

وأخيراً قالت دون أن تنظر إلى « أتعرف ماذا ؟ »

قلت « ماذا ؟ »

قالت « دعنا نتزلق مرة أخرى ! »

* * *

وتسلقنا الهضبة الثلجية . وجلست نادنكا فى الزاحفة شاحبة مرتجفة . ومرة أخرى اندفعنا شطر الهوة المخيفة . وزأرت الريح . ومرة أخرى همست والزاحفة تشق طريقها فى سرعة مخيفة « إنى أحبك ياناديا ! »

وعندما توقفت الزاحفة عن المسير ألقت نادنكا نظرة على الهضبة حيث انزلقنا ، ثم حدجتنى بنظرة طويلة، تستمع إلى وأنا أتكلم فى هدوء وبرود ، ويهرب كل جزء من جسمها الصغير ، حتى الفراء التى كانت تغطى به يديها ، حتى غطاء رأسها ، من منتهى الحيرة ، وكأنما قد سطر على وجهها « ماذا يعنى ذلك ؟ من الذى تفوه بتلك الكلمات ؟ أنطق بها هو أو أنى تخيلت ذلك فحسب ؟ »

وأصبح الشك يضايقها ويقصيها عن كل شىء . ولم تعد الفتاة المسكينة تجيب على أسئلتى ، بل صمتت فى غضب وكأنها على وشك البكاء

وأخيراً سألتها « أليس من المستحسن أن نعود إلى الدار ؟»

فقالت فى خفر « حسن . أنا ... إنى أحب هذه الرياضة . ألا تود أن تنزلق مرة أخرى ؟ »

إنها تحب « هذه الرياضة » ! ومع ذلك ، فعندما امتطت الزاحفة ، أصبحت ـ كما كانت فى المرتين السابقتين ـ شاحبة الوجه مرتجفة ، تلهث رعباً

وانحدرنا للمرة الثالثة . ولاحظت أنها تحدق فى وجهى وتراقب شفتى . ولكنى وضعت منديلى على فمى وصمت . وعندما بلغنا منتصف الهضبة ، ، نجحت فى التفوه قائلا « إنى أحبك ياناديا ! »

وظل السر غامضا ، كانت نادنكا صامتة ، تنعم النظر فى . . لاشىء . . وأوصلتها إلى دارها . كانت تسير الهوينى ، وتحاول أن تقصر من خطواتها ، إلى أن تتحقق من أنى تفوهت بهذه الكلمات . ولاحظت كيف كانت روحها تتعذب ، وأى مجهود كانت تقوم به وهى تحدث نفسها قائلة « لايمكن أن تكون الريح قد تفوهت بهذه الكلمة ! إنى لا أود أن تكون هى السبب ! »

وفى صباح اليوم التالى تسللت رقعة منها تقول فيها « إذا كنت تود التزلج اليوم ، فاحضر إلى »

ومنذ ذلك الوقت أخذت أذهب يوميا للانزلاق مع نادنكا، وكنا نزلنا بالزاحفة أحيانا قائلا « إنى أحبك ياناديا»

* * *

وسرعان ما اعتادت نادنكا هذه العبارة كما يعتاد المرء الخمر والمخدر ، وأصبحت لا تستطيع العيش بدونها . وفى الحق ، كان الانزلاق من التل الثلجى رعبها دائما بيد أن الإحساس المخيف والشعور بالخطر قد ولدا لها سحراً غريبا من كلمات الحب ـ كلمات كانت لا تزال الغزا يعذب روحها . وكنا ـ أنا والريح ـ لازلنا موضع شكها .. فقد كانت تجهل من منا الذى يغازلها . بيد أنه كان يبدو الآن أنها لم تعد تأبه بذلك أو تهتم. فشارب الخمر لايبالى من أى دن يستقى مادام أن مايحتسيه يشمله

ولقد حدث ظهر يوم أن ذهبت وحيدا إلى أرض الانزلاق واختلطت بالوجودين ، فشاهدت نادنكا تصعد الهضبة وتنظر باحثة عنى . . وكان يبدو عليها الخوف من الذهاب وحدها ـ أوه أى خوف ! لقد كانت ناصعة البياض كالثلج ، ترتجف وكأنها فى طريقها إلى المقصلة . بيد أنها واصلت التسلق فى عزم دون أن تلتفت خلفها . وكان من الجلى أنها صممت أن تتبين وحدها فيما إذا كانت ستستمع إلى تلك الكلمات العجيبة فى أثناء غيابى

وشاهدتها شاحبة الوجه منفرجة الشفتين ، تمتطى الزاحفة وتغمض عينيها ، ثم تندفع بها وكأنها تودع الأرض إلى الأبد

ولست أدرى هل سمعت نادنكا تلك الكلمات . كل ما أدريه أنى شاهدتها تنهض من الزاحفة وقد بدت متخاذلة منهوكة . ولم يبد على محياها ما ينبىء : أكانت قد سمعت شيئا أو لم تسمع . فقد كان خوفها وهى تنحدر قد جردها من حاسة السمع أو تمييز الأصوات . فلم تؤد بها محاولتها الجبارة إلى حل ذلك اللغز اللطيف . . ولم تحاول مرة أخرى

ثم أقبل شهر مارس ... وكانت أشعة شمس الربيع أكثر حنانا وشفقة . . وتحولت هضبتنا الثلجية إلى لون قاتم ، وفقدت بهاءها . وأخيرا ذاب الثلج وهجرنا الانزلاق : ولم يعد هناك ثمة موضع تستطيع فيه المسكينة نادنكا أن تستمع إلى تلك

الكلمات وفي الحق ، لا يوجد هناك من يتفوه بها الآن ، فالربيع قد ولت ، وكنت أنا الآخر على أهبة الرحيل قاصدا بطرسبرج لأقيم فيها مدة طويلة بل املها تكون إقامة مستمرة

وحدث قبل رحيلي بيومين أن كنت جالسا بغمرني الظلام في الحديقة الصغيرة التي يفصل بينها وبين فناء نادنكا حاجز مرتفع ... كان الجو لايزال باردا ، ولم يبد هناك جليد . وبدت الأشجار وكأنما قد فارقتها الحياة . بيد أن رائحة الربيع كانت تضوع في كل مكان ، والغربان تنعب في صوت جهوري أثناء استقرارها في عشها . وذهبت إلى الحاجز ، ووقفت مدة طويلة أتبصص خلال فرجة بالحاجز . وفجأة شعرت بالوحشة تنتابني . وبدافع يدفعني إلى العدول عن الرحيل

ثم شاهدت نادنكا تقبل نحو الطاقة ، وتحدج السماء بنظرة حزينة والهة . كان النسيم يهب على وجهها الشاحب فيذكرها بالريح التي كانت تزأر في وجهينا فوق الهضبة الثلجية عندما كانت تستمع إلى تلك الكلمات الثلاث . وكما وجهها حزن بالغ وانحدرت الدموع على خدها ، ومدت الطفلة المسكينة ذراعها كما لو أنها تتوسل إلى النسيم أن يأتي لها بتلك الكلمات وفي هذه اللحظة همست قائلا « إني أحبك ياناديا ! »

يالرحمة الله ! أي تغير ذلك الذي طرأ على نادنكا ! لقد ندت عنها صرخة ، ثم ابتسمت ابتسامة أشرقت على وجهها ، وبدت تنمرها البهجة والسعادة والجمال . وجعلت تستقبل النسيم بذراعيها وذهبت أحزم أمتعتي ...

* * *

كان ذلك منذ أمد بعيد . أما الآن فقد تزوجت نادنكا . . تزوجها سكرتير أحد النبلاء ولها الآن أولاد ثلاثة .

ومع ذلك فإن ذكرى تلك الأيام التي كانت تذهب معي فيها للأزلاق، فتستمع إلى الريح تهمس إليها « إني أحبك ياناديا ! » هذه الذكرى لم تغب عن بالها مطلقا ، لأنها في عرفها أجمل وأسعد بل أكثر الذكريات تأثيرا في حياتها ...

بيد أني ، وقد بلغت الآن من الكبر عتيا ، لا أستطيع أن أفهم لماذا تفوهت بتلك الكلمات ، وماذا كان باعثي على هذه المزحة ؟!

محمد فتحي عبد الوهاب

سكك حديد الحكومة المصرية

عرض الاعلانات بالمحطات

لقد وجهت المصلحة كل عنايتها إلى المحطات فأقامت بها لوحات خشبية خصصتها لعرض الاعلانات فضلا عن أنها تبذل مجهودا صادقا من وقت لآخر في تجميل تلك المحطات حتى أصبح الأعلان فيها من أحسن وسائل الدعاية .

وتتقاضى المصلحة جنيهين مصريين عن المتر المربع في السنة وهي قيمة زهيدة تكاد لا تذكر بجانب أهمية الاعلان الذي يتصفحه آلاف المسافرين في اليوم الواحد .

ولزيادة الاستعلام اتصلوا —

بقسم النشر والاعلانات

بالادارة العامة بمحطة مصر